

المصاهرات بين العراق وإفريقية التونسية

زخرت القيروان - في مسهل القرن الثاني للهجرة - بالسكان ، ولم تكن رقعتها تضم أهلها الأصلاء وحدهم ، وإنما تفسح صدرها للواردين عليها من مختلف الأمصار الإسلامية ، فكانت يثقلها الاجتماعية تحتوي على عناصر أشتات ، من عرب وأفارقة وبربر وإفرينج ، وقد أشار إلى ذلك الرحالة « اليعقوبي » حيث قال ^(١) : « وفي مدينة (القيروان) أخلاط من قرش ومن سائر بطون العرب ، من مضر وربيعة وقحطان ، وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك ... » .

ومن بين قطّان القيروان : الأجنادُ وأبناء الأجناد الوافدون من شمال جزيرة العرب ، ومن اليمن والشام ومصر ، وكذلك العمال والأعوان الذين تبعث بهم الخلافة الأموية لكي يسند اليهم الولاة مرافق إدارة البلاد ، وكذلك أهل التجارة الذين يزاولون عرض بضائعهم المجلوبة من أطراف المشرق والمغرب .

وفي من ضمت القيروان طائفة أخرى غير هؤلاء وهؤلاء ، طائفة العلية والسراة من أهل البيوتات العربية العريقة الأنساب ، ساقبهم مطامعهم السياسية إلى إفريقية ، لكي يكونوا بمنأى عن مقر الخلافة ، وبمنجاة من سلطان بني أمية ، أو كانت هجرتهم لغير ذلك السبب من الدواعي والرغبات ، فوجدت الجالية العربية الفتية في مقدمتهم تعزيزاً لها وتقوية على الأيام ...

فمن أعيان الوافدين : (منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري) من ذرية « ذي رعين » أحد ملوك اليمن قبل الإسلام .

طراً منصور على القيروان نحو سنة ١١٠ هـ ، وأخذها له وطناً ، وابتنى بها داراً حسنة في الحي المنسوب إلى « بني نافذ » غير بعيد من المسجد الجامع ، وقد صاهره البشير بن خالد صاحب

(١) كتاب « البلدان » لليعقوبي - وقد زار المغرب في حدود سنة ٢٨٥ هـ - طبع النسخ من ١٠٦ .

الشرطة بإفريقية ، إذ تزوج أخته ، فزاد ذلك من مكانته في الجالية العربية .
قال ابن الأبار ^(١) - ناقلًا عن ابن الوكيل القيرواني - : « كان منصور شريفًا في قومه ،
معروف المكانة فيهم ، مذكورًا بالبلاغة والشعر وكرم الأخلاق .

وبعد حين من مقدمه ، ورد عليه شاب قرشي من البصرة ، يعرف آل بيته في المشرق ،
وهو : أبو جعفر عبد الله العباسي ، فأكرم منصور مثواه ، وأنزله على الرحب والسعة .

ويجمل بنا هنا أن نسوق نبذة من خبر أبي جعفر ، وما كان له من الصلة الوثيقة بإفريقية
التونسية قبل أن يلي الخلافة وبعد أن وليها ، وهو : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب ، وأمه « سلامة » بنت بشير ، جارية بربرية من قبيلة نفزة التونسية ،
تزوجها أبوه محمد ، فولدت له أبا جعفر سنة خمس وتسعين للهجرة بمدينة البصرة ، فنشأ بها ،
وقرأ على أعلامها ، ومن رفقته في مدارس العلم زمن الصغر : عبد الرحمن بن زياد بن أنعم
الإفريقي ^(٢) .

حكى عبد الرحمن عن نفسه ، قال : « كنت أطلب العلم مع أبي جعفر المنصور ، قبل أن
يلي الخلافة ، فأدخلني يوماً منزله في الكوفة ، فقدم طعاماً وشرقة من حبوب ليس فيها لحم ،
ثم قدم زبيباً ، وقال : يا جارية ، عندك حلوى ؟ قالت : لا ، قال : ولا تمر ؟ قالت : ولا تمر ،
فاستلقي ، ثم قرأ هذه الآية : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ، فينظر
كيف تعملون) » .

ولما كبر أبو جعفر ورعرع ، اقتفى خطا أخويه الكبيرين : إبراهيم المعروف بالإمام ، وأبي
العباس الذي أشتهر فيما بعد بالسفاح ، فجرى مجراها في دعوى استحقاق الخلافة ، فأذكت الدولة
الأموية الميون عليه ، وأوعزت إلى المال والأعوان أن يتبعوه ، وأن يتعرفوا ما يكون منه ،
وأن يقبضوا عليه إذا لزم الأمر ، فكان هو وأهل بيته يتخفون ما استطاعوا ، ويسرون دعوتهم
بكل سبيل ، ويلوذ منهم لائذون بالقاصية مثل خراسان وبلاد فارس وصنعاء باليمن .

(١) كتاب الحلة البراء (ص ٣٥١) .

(٢) راجع ترجمته في « خلاصة تاريخ تونس » (ص ٥٩) ، من تأليفنا .

وما عثم أبو جعفر أن توخى إفريقية لما بينه وبينها من رحيم وأشجة ، فإن ابن عمه حفيد عبيد الله بن عبد الله بن العباس كان قد طرأ على القيروان وتزوج فتاة تسمى « أروى » وتكنى « أم موسى » ، وهي ابنة منصور بن يزيد الحميري ، فأولدها بنتاً ، ومات نحو سنة عشرين ومئة للهجرة ، فبقيت « أروى » في بيت أبيها ، وتقلبت بها الأيام ، حتى كان مقدم أبي جعفر يستلحق ابنة ابن عمه في ظاهر الأمر ، على حين أن حقيقة الفرض من مقدمه هي التماسه سبيل النجاء من طلب بني أمية له .

حل أبو جعفر ضيفاً عزيزاً على منصور بن يزيد الحميري ، وفي أثناء مقامه عنده شهد من وسامة « أم موسى » ما بهر بصره ، وخلق لبه ، فخطبها إلى أبيها ، وتزوجها ، وتعلق بها أكبر التعلق طول حياته . وقد اشترط لها أبوها في عقد زواجها ألا يتزوج أبو جعفر غيرها ، وألا يتخذ السراي معها ، فإن تسرى عليها كان طلاقها بيدها ، كما حرت بذلك عادة أهل القيروان من عهد قديم ، حتى سميت تلك الطريقة بالصدق القيرواني ^(١) .

مكث أبو جعفر في كنف منصور بن يزيد الحميري والد زوجته « أروى » ، حتى كتب الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عامله على إفريقية يطلب منه القبض على أبي جعفر ، فلما أحس الخبر اضطرب أن يستخفي في بيت خنته بشير بن خالد ، وهو قصر يقوم في وسط ضيعة خارج القيروان على طريق سوسة ، وربما كان في موضع (ذراع التمار) الآن .

وبعد حين أزمع أبو جعفر عوداً إلى الشرق ، ليلحق بإخوته وآل بيته ، وكانت أنباء دعوتهم تنفاه إلى القيروان ، فأنحدر بزوجه « أروى » مخفياً إلى الكوفة ، وظل يتردد على منازل الأشباع من الهاشميين في سره حتى ظفرت الدعوة العباسية بمنصرة أبي مسلم الخراساني ، وسقطت دولة بني أمية ، وآلت الخلافة إلى عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ وكان الأخ الأكبر لأبي جعفر ، فلما مات وسدت إليه الخلافة سنة ١٣٦ هـ ، وفي بادئة أمره أنشأ مدينة بغداد التي سميت أول ما سميت : « مدينة المنصور » ، وابتنى لنفسه قصراً أسماه « قصر الخلد » ، وأسكن فيه وزوجه وبنيه وذويه .

(١) راجع ما كتبناه في هذا المعنى في كتابنا (شهورات التونسيات) ص ١٥ من طبع تونس .

وقد وفي المنصور لزوج « أم موسى » ما كان عاهدها عليه في عقدة الزواج ، فلم يتخذ له زوجاً سواها ، ولم تكن له سراري معها طول حياتها ، وقد ولد له منها جعفر أكبر أولاده ، ومات في حياة أبيه ، وولد له منها كذلك ابنة هي « الزبيدة » التي تزوجها هارون الرشيد فيما بعد ، وابن ثان هو « محمد المهدي » الذي سارت إليه الخلافة .

ولم تزل « أروى أم موسى » في المحل الأرفع من قلب زوجها ومن إجلاله وتكريمه ، يرعى أولادها ، ويحتفي بأهل بيتها ، حتى توفيت سنة ١٤٦ هـ بعد عشر سنين من ولايته إمارة المؤمنين .

حزن المنصور على زوجته الحميرية الإفريقية حزناً أليماً ، اذ كان يحمد لها ما تمتاز به من جليل الخصال ، ويذكر لها مشاركتها إياه في البأساء والنساء ، ويفخر بأنها سلالة ملوك اليمن من حمير ذروة مجد العرب الأثيل .

وقد عرفت « أم موسى » فيما بعد بأنها « أم الخلائف » ، إذ أن خلفاء بني العباس - من بعد المنصور - كانوا من ذريتها الماجدة ، نازعين الى تلك الأعراق البالغة من النبالة أقصى المبالغ .

ومن قول الشاعر الكبير سلم بن عمرو المعروف بالخاسر في مدح الخليفة المهدي (١) :

أكرم بقرم أمين الله والدّه وأمه أم موسى بنت منصور

ومن قول الشاعر المعروف أبي نواس في الخليفة محمد الأمين بن الرشيد وزبيدة :

وما مثل منصور بك : منصور هاشم ، ومنصور قحطان إذا عدّ مفخر

فمن ذا الذي يري بسهميك في الوري وعبد مناف والداك وخير ؟

ومن قول أبي نواس أيضاً :

فجداك هذا خير قحطان واحداً وهذا إذا ما عدّ خير نزار

يعني بالقحطاني منصوراً الحميري ، وبالنيزاري أبا جعفر المنصور .

ونقتصر على هذه الأبيات في الإشارة الى رفعة نسب منصور الحميري واتصاله ببني العباس ،

والمأثور من أمثالها كثير لا يتسع لإيرادها المقام .

عاش أبو جعفر المنصور بعد وفاة زوجته ، في عزه وصوله ، حتى تُوفِّيَ سنة ١٥٨ هـ وهو في طريقه الى الحج ، ودفن في مكة ، وخلفه على الأمر ابنه الأكبر محمد المهدي .
وقد اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه لم يكن في خلفاء بني العباس أعلم من أبي جعفر المنصور وحفيده عبد الله المأمون ، ودونهما في المعرفة هارون الرشيد والواثق بالله ، ولننصور معدود في الملوك الشعراء .

وقد أورد له الأخباريون وصيته الخالدة الى ابنه وخليفته المهدي ^(١) ، ومن قوله في بعض موافقه الحربية ، وقد التفت عليه جموع من الأعداء :

وجعلت نفسي للرماح دَرِيْثَةً إِنَّ الرَّئِيسَ لَمِثْلَ ذَاكَ فَعُودُ
وقوله محبباً من نصحه له بالأناة في أمر أبي مُسلم الخراساني :
إِذَا كُنْتُ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيْزَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَرْتَدَّ
وَلَا تَهْمَلِ الْأَعْدَاءَ يَوْمًا بِقُدْرَةٍ وَبَادِرْهُمْ أَنْ يَمْلِكُوا مِثْلَهَا غَدًا
وقوله أيضاً :

تَقْسِمُنِي أُمْرَانِ لَمْ أَتَسَحَّهَا بِحُزْمٍ ، وَلَمْ تَعْرِكَ قَوَايِ الْكِرَاكِرِ
وَمَا سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ مِثْلَ دَفِينَةٍ مِنْ هَمٍّ رَدَّتْهَا عَلَيْكَ الْمَصَادِرِ
وَقَدْ عَلِمْتَ أَبْنَاءَ عَدْنَانَ أَنِّي لَدَى مَا عَمِرَا مَقْدَامَةَ مَتَجَارِمِ

وله في غير ذلك من الشعر الحماسي ، نظمته في أثناء ولايته وقبل أن يتولى .

عني المنصور عناية خاصة بالبلاد الإفريقية وبأهلها منذ قبض على زمام الخلافة ، إذ كان يعلم من حقيقة أمرها ما بصره به العيان ، فقد سكنها وأقام بها زماناً ، وعرف خباياها ، وخبر رجالها ، فلا غرو إذن أن يصطفي لإمارتها كبار قواد دولته ، مثل : محمد بن الأشعث الخزاعي ، والأغاب بن سالم التميمي ، يزيد بن حاتم المهلبي ، وأخيه روح بن حاتم ، وما منهم إلا من قاد الجيوش في الفتوح ، وتوسد جلائل الأعمال في تلك الدولة الفتية الناهضة .

(١) الحلة السيرة (ص ٣٥٣) . (٢) الكامل لابن الأثير (٩/٦) .

ويروى عن المنصور أنه كان يسأل من يفد عليه ببغداد من أهل إفريقية : كيف حال إحدى القيروانيين ؟ يعنى بذلك مدينة تونس ، إذ أقام بها فترة من الزمن .

* * *

والآن وقد قصصنا عليك ما كان من صلة أبي جعفر المنصور بالقيروان ، قبل الخلافة وبعدها ، نلجأ الى ما كان من صلة ذرية العباس بن عبد المطلب - عم النبي صلى الله عليه وسلم - بإفريقية التونسية ، وما لهم من قدم صدق في فتحها .

شارك عبد الله بن عباس - حبر هذه الأمة - في أول غزوة لإفريقية ، مع عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ ، وهو الذي قسم الغنائم بين القواد والأجناد في وقعة « سبيلة » .

والغزو الثاني لإفريقية بأمره شقيقا عبد الله بن عباس ، هما : معبد وعبد الرحمن سنة ٣٥ هـ مع معاوية بن حديج ، وقد استشهدا جميعاً ، رضي الله عنهما ، في فتحها ، ودُفنا في تربتها ، وتبرك أدعيهما بأشماله على رفاتهما الطاهرين^(١) . وثلاثتهم أبناء العباس عم الرسول ، عليهم صلوات من ربهم ورحمة .

وقد أسلفنا لك من نبأ منصور بن يزيد الحميري أنه اتخذ بالقيروان داراً فسيحة لأهل بيته ومواليه ، ويبدو أنه كان واسع الثراء ، يتخذ الحاشية والأتباع . فن مواليه (حفص) الذي تولى من بعد خراج إفريقية ، يدبر أموال البلاد ، وابتنى لنفسه قصرأً اشتهر باسمه (قصر حفص) ، وذلك في العاصمة ، وقد ورد ذكر هذا القصر كثيراً في تراجم الأفاقة .

كان لمنصور الحميري عدة أولاد في القيروان ، من أشهرهم :

يزيد بن منصور الذي التحق بابن أخته محمد المهدي لما آلت اليه الخلافة سنة ١٥٨ هـ ، فقربه المهدي منه ، واستعان به في المهات ، وأسند اليه المناصب ، مثل ولاية خراسان والكوفة واليمن ، وإمارة موسم الحج ، وقد لُح اسم يزيد حتى مدحه عليه الشعراء ، كأبي نواس ، وتوفي

(١) لنا بحث مطول - في غير هذا - عن استشهاد من الصحابة في التراب التونسي ، وقد بسطنا فيه من الكلام عن تأريخ أبناء سيدنا العباس ، فليراجع هناك .

زيد سنة ١٦٥ هـ (١) .

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا الصدد أن أبا محمد يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي الطائر الصيت ، صاحب أبي عمرو بن العلاء وأحد كبار القراء ، إنما قيل له اليزيدي لأنه كان يؤدب ولد زيد بن منصور هذا ، فنسب اليه ، ثم إنه أدب بعد ذلك الخليفة المأمون (٢) .

* * *

ومن غريب المواقفات أنه لا تكاد تمر مئة عام على الأحداث التي قدمناها حتى يقدم على إفريقية أمير عباسي في بواكير الصبا ، من حفدة أم الخلائف أروى الحيرية القيروانية ، وذلك في نحو سنة ٢٧٠ هـ .

ذلك الشاب هو (عبد الوهاب ابن الخليفة المهتدي ابن الخليفة الواثق) ، وقد خرج من بغداد بعد مقتل أبيه بأعوام ، فوصل الى القيروان في مدة الأمير إبراهيم الثاني من « بني الأغلب » ، فأحسن الأمير لقاءه ، وأثرله بجوار قصره (الفتح) في أحد المتنزّهات البديعية التي أنشأها في مدينة « رقادة » .

ورغب الأمير الشاب في الإصهار الى الأسرة الأغلبية ، فزوجه إبراهيم الثاني ابن أخيه المتوفى الأمير محمد الثاني الملقب بأبي الغرائق ، وتوالت ولأثم العرس أياماً وليالي في رقادة (٣) ، وكان التولي لمقد الزواج هو القاضي الطائر الصيت عبد الله بن طالب التميمي صنو الأغلبة .

سكن عبد الوهاب وعروسه في قصر لطيف ، تحف به حديقة غناء ذات أفنان وزهر وريحان ، وولد لها (محمد) و (حسين) ، فنشأ كلاهما في رعاية عم والدتها حتى أهلها بالتربية لشغل المناصب الرفيعة في الدواوين ، وبينما كانا في صباها فارقها أبوها عبد الوهاب عائداً الى العراق وسرّ من رأى ، فظل الأميران الصغيران مع أمهما الى أن توفاهما الله في نحو سنة ١٨٥ هـ . وطرقت إفريقية طوارق الحدثنان ، وتجمعت البوادر المؤذنة بسقوط دولة بني الأغلب التميمية ، وقيام الدولة العبيدية الفاطمية مكانها ، فاستنكف الأميران البياسيان أن يقيميا بإفريقية ،

(١) الكامل لابن الأثير (٢٨/٦) . (٢) الحلة (ص ٣٥٣) .

(٣) جبهة الأنساب لابن حزم (ص ١٨ و ٢٣) .

والتحق أكبرهما (أبو اسحاق محمد) بالأندلس قاصداً خليفتهما عبد الرحمن الناصر ، فاحتفى بمقدمه عليه في قرطبة ، وأجرى له رزقاً معلوماً في كل سنة ، ومات أبو اسحاق محمد في خلال سنة ٣٣٣ هـ ولم يعقب .

أما أصغر الأخوين (الحسين بن عبد الوهاب) ، فانه ماكاد يشهد أقول نجم بني الأغلب حتى رخل الى جزيرة صقلية ، وأقام بعاصمتها (بلم) الى أن وافاه الأجل المحتوم ، فدفن هناك ، ولا ندرى أعقب أم لا .

ومما مر بنا مجمل في هذه العجالة ، يتبين لنا أن الجالية العربية النازحة الى إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث ، كانت تعد بينها وجوهاً من أبناء البيوتات المشهورين بفصاحة الألسن وسعة الآداب ووفور الأحساب وأصالة الأنساب . وفي ذلك بلاغ !

تونس : ح . ح . عبد الوهاب الصمادحي